أديب الشام الدكتور شكري فيصل

للدكتور نسيب نشاوي
جامعة عنابة

نعت الأوساط العلمية والأدبية والصحافة والإذاعة بدمشق وفاة أديب الشام الكبير الدكتور شكري فيصل عضو مجمع اللغة العربية بدمشق وعضو مجامع اللغة العربية في القاهرة والأردن وبغداد والهند، وأستاذ الدراسات العليا في جامعة دمشق والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وعضو اتحاد الكتاب العرب.

توفي العلامة اللغوي الأديب المجمعي الدكتور شكري فيصل إثر عملية جراحية أجريت له في جنيف بسويسره مساء السبت في ١٤٠٥/١١/١٧هـ الموافق ١٩٨٥/٨/٣م وصلي عليه بالمسجد النبوي الشريف ووري جثمانه الطاهر بالمدينة المنورة يوم السبت في ١٤٠٥/١١/٢٤هـ الموافق ١٩٨٥/٨/١٠م. ففقد مجمع اللغة العربية عالماً باراً بأمته ورجلاً من رجال الأدب والفكر كان له فضل كبير في تخريج جيلين من الأدباء والجامعيين تابعوا نهجه في الاعتزاز بالتراث العربي الإسلامي والعمل على نشره وإحيائه.

وبدمشق (الشام) حيث ولد الأستاذ الفقيد تقبلت أسرته التعازي وكان لي شرف المشاركة في تقديم التعزية.

عرفتُ الدكتور شكري فيصل منذ نحو ثلاثين سنة، إذ كنا نسكن بالحي الذي يسكن فيه بدمشق وهو (حي العقيبة) وكانت أسرته وأبناء عمومته يقطنون هذا الحي أيضاً ويقع في قلب مدينة دمشق القديمة (الشام)، وعرف آنذاك بوداعته وجده ووجاهته وعلمه، إذ كنت أسمع مما يتردد بين رفاق الصبا أنه نشأ عصامياً ثقّف نفسه بنفسه وتفّوق على الأقران ثم سافر إلى مصر فدرس الماجستير والدكتوراه ونال المراتب الرفيعة. فصار قدوة أهل الحي، وما كنت أعلم أنني سأكون في يوم ما في

عداد طلابه بكلية الآداب بجامعة دمشق فقد كان أستاذاً فيها منذ مطلع الخمسينات وإذ ذاك كنا في المدرسة الابتدائية.

ولما دخلت جامعة دمشق عام ١٩٦٦م صرت أحد طلابه بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب ورأيت أن شهرته آنذاك قد طبقت الآفاق وملأت الوطن العربي، ودرست عليه سنتين، ففي السنة الأولى ألقى علينا محاضراته في مادة (الأدب الجاهلي) فكان يَحْدث لي ولطلابه ما يشبه النشوة أو الغيبوية عن هذا العالم فنسبح مع الأدب الخالد وآفاقه وعواطفه وصوره: وتتجلّى لنا الحياة العربية القديمة بفطرتها السليمة وعواطفها البريئة ومباذلها الطريفة وخاصة حين تنكبّ على الغزل العذري أو المادي.. أو المفاخرة بالأحساب والأنساب والقوة الجسدية والنفسية.. ولم تزل اعتذاريات النابغة الذبياني لأبي قابوس ملك الحيرة ترنّ في سمعي إلى الآن ولا سيما قوله:

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

وما زلت أتبنّى رأيه في طه حسين الذي نفى كثيراً من الشعر الجاهلي في أن طه حسين أراد أن يعاكس التيار ليلفت النظر أولاً وليلقي صخرة كبيرة في مياه الأدب الراكدة في مطلع هذا القرن، ويتبّى منهجاً جديداً في معالجة النص الأدبي قائماً على الشك الديكارتي..

وأثمرت هذه المحاضرات بعض المطبوعات التي قدمها لنا عن (**طبقات فحول الشعراء**) لابن سلّام و (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، وكتابين ألفهما – رحمه الله- أحدهما في دراسة (النابغة الذبياني) والآخر هو (تحقيق ديوان النابغة) صنعة ابن السكيت نشره ببيروت عام ١٩٦٦م. وطلب إلينا أيضا التركيز على كتاب (تطور الغزل في الجاهلية والإسلام) وهو من تأليفه أيضاً. ولم يقصر المقرر الجامعي على هذا فحسب فهناك كتاب (في الأدب الجاهلي) لطه حسين، طلب إلينا حفظه وحفظ جميع الردود التي تصدت له والمعركة الأدبية التي دارت رحاها حوله آنذاك

ولا سيما الصدام الذي وقع بين الرافعي وطه حسين وحركة التأليف التي نشطت إثره والتي أخرجت أخيراً الكتاب القيّم الذي صنعه الدكتور ناصر الدين الأسد تحت عنوان (مصادر الشعر الجاهلي) حيث أثبت صحة الأدب الجاهلي بشكل علمي دقيق..

أما الأستاذ العلامة أحمد راتب النفاخ فجعل آنذاك يلقي محاضراته حول سائر شعراء الجاهلية كشعراء المعلقات والشعراء الفرسان والشعراء الصعاليك.. وقد اختار لهم نصوصاً ذهبية جعلها في كتاب قيّم موثّق بعنوان (**نصوص مختارة من الشعر الجاهلي**) ليدعم مقرر الأدب الجاهلي الذي يحاضر فيه الدكتور فيصل.

إن ملاحظة حجم المادة التي كان يحاضر فيها الدكتور فيصل في الستينات يوحي بإخلاص هذا الرجل وسعة علمه وصدقه في تقديم منهاج شامل متكامل لطلابه الجامعيين، خصوصاً إذا عرفنا أن حجم الزمان المخصص للمحاضرة لا يعدو ساعتين أسبوعياً خلال عام دراسي، وإننا لنحنّ إلى تلك الأيام التي كان فيها التدريس الجامعي على هذا النحو.

في عام ١٩٦٨م وكنا نجحنا إلى السنة الثالثة بكلية الآداب سمعنا أن الدكتور فيصل قد عزم على السفر إلى الجزائر لتدريس الأدب العربي في جامعة الجزائر العاصمة فأدركت أنه ودع طلابه في أثناء امتحان (الأدب الإسلامي) قبل شهور إذ دخل علينا ونحن في قاعة الامتحان وسألنا عما نحتاج إليه لمعالجة أسئلة المقرر، ولم يكتف بل أخذ يتقدم إلى كل طالب في مقعده ويحييه بلطف ووقار مشيراً إليه أن اسأل عما بدا لك.. وتلك لحظات لا أنساها حين أطلّ عليّ وأنا في غمرة التفكير وسألني: هل السؤال واضح؟

وفعلاً أعارته جامعة دمشق إلى جامعة الجزائر ثلاث سنوات، وبقيت أتبادل الرسائل معه وما زلت أحتفظ ببعض ما أرسله إليّ من الجزائر. ولما تخرجت في جامعة دمشق كان قد عاد فصرت أزوره فيساعدني بتوجيهاته القيمة حول رسالة

الماجستير التي كنت أعدها بعنوان (لبيد بن ربيعة العامري حياتُه وشعره في الجاهلية والإسلام)، ثم صرت أزروه بمكتبه وهو أمين عام لمجمع اللغة العربية بدمشق.

ففي **حدود عام** ١٩٧٣م انتخب أميناً عاماً لمجمع اللغة العربية بدمشق فبدأ يخطط لمشروع علمي ضخم وهو نشر موسوعة (تاريخ دمشق الكبير) لابن عساكر، فاستعان بوزارة الدفاع السورية فأبدت استعدادها للمساعدة، وانتدب لهذا العمل فرقة من الباحثين في التراث عملوا بإشرافه وتوجيهه نحو خمس سنوات، فأخرجت المجموعة جزءاً من كتاب تاريخ دمشق الكبير عام ١٩٧٧م في ألف صفحة من القطع الكبير، وصار هذا الجزء نموذجاً للمحققين الذين دأبوا بعد ذلك على نشر بقية الأجزاء، وطالت الطريق على السائرين لأن كتاب ابن عساكر يتألف من ٥٦٠ جزءاً.. وهذا يعني أن المشروع سيحتاج إلى عشرات السنين.. وأخذ المجمع يفكر في هذا الشغل الذي أرهقه وأرهق الباحثين، ولكن عزيمة الدكتور فيصل كانت أشد من أن ينالها الوهن والرهق فأصرّ على متابعة ما خطط له.. وأصدر أجزاء أخر من الكتاب.. واضطر إلى ترك أمانة المجمع فبقيت شاغرة إلى أن قبلها العلامة الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب منذ عام ١٩٨١.

بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨١م كان الدكتور فيصل في أوج نشاطه وعطائه وهو يعبر الخمسين إلى الستين من العمر (ولد عام ١٩١٨م) وكأن الأيام تزيده توقداً وحيوية، وهي حيوية كان يسكبها على التراث العربي الإسلامي فينبري لنشره وتشجيع حماته وأنصاره، يحاضر في عدة جامعات عربية في دمشق وبيروت وقطر والكويت وكأنما حببت إليه الأسفار فما أن يستقر حتى يرحل للتدريس أو المشاركة في المؤتمرات العربية والعالمية ونشر بحثه ومقالاته وكتبه وتحقيقاته وزيادة على ذلك هو عضو عامل في المجمع بدمشق وعضو بارز في مجامع القاهرة وبغداد والأردن والهند.. يشرف على لجنة إحياء المخطوطات ونشر التراث وعلى مجلة المجمع

بدمشق ويدافع عن العرب والمسلمين في المحافل دفاع الغيور القوي فلا يترك فرصة للنيل من أعدائهم، ولقد صبغ طلابه والباحثين من حوله بهذه الصبغة، فتخرجت على يديه نخبة استلهمت منه حب العربية وتراثها وإسلامها، ولعل أحداً لا يستغرب إذا قيل إن كثيراً من أساتذة اللغة العربية في الجامعات السورية من طلابه أو ممن تتلمذ عليه، تخرج على يديه جيل كامل من الأدباء والأكاديميين.. وما زال ذكره عطراً وذكرياته طيبة وما أظنها تموت.

حزّ في نفسه في عام ١٩٨١م أن أحيل على المعاش فخرج من هيئة التدريس بجامعة دمشق، وما واتاه جو المجمع اللغوي بدمشق لأنه أخذ يميل إلى نشر التراث العربي عامة.. فلم يعد المجمع يقصر همه على (تاريخ دمشق الكبير).. وتلقى بعض صدمات في أسرته ما أحبّ أن يفصح عنها.. فأكثر من الصمت، وتبيّن أنه بدأ يفكر بمجاورة رياض رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة فأمضى عقداً مع رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وسافر إليها أستاذاً للدراسات العليا منذ عام ١٩٨١م.. ولم يقطع صلته بمجمع اللغة بدمشق لأنه أحبه حباً عظيماً فصار يزوره في عطلة الصيف ويلتقي زملاءه فيه، كما لم يقطع صلته بالجزائر فكان يزورها أيام انعقاد (ملتقى الفكر الإسلامي) السنوي، وآخر ما عرفته الجزائر هو مشاركته في ذلك الملتقى في العام الماضي ١٩٨٤م وهي آخر مرة رأيته فيها وكان يجلس عالياً قرب سدة رئيس الملتقى.

ترك الدكتور شكري فيصل شواهد آبدة أذكت حركة نشر التراث العربي الإسلامي بسورية والعالم العربي، وأسهم في تنشيط الحركة الفكرية والثقافية العربية مع أمثاله من المصلحين، وزيادة على ذلك ألف كتباً جامعية في منهجية البحث الأدبي أو ما سماه (مناهج الدراسة الأدبية) ١٩٥١م وهو رسالة ماجستير قدمها إلى الجامعة المصرية عام ١٩٤٩م. ودرس حركة الفتوح الإسلامية في كتابه (حركة الفتح الإسلامي)، وحلل المجتمع العربي عقب انتشار الإسلام في كتابه

(المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري وتطورها اللغوي والأدبي) وهو رسالة دكتوراه، واعتنى بنشر التراث واختار منه شعراء الشام فاتصل بمجمع دمشق ونشر فيه كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام) في (٣) أجزاء نشر الجزء الأول عام ١٩٥٥ والثاني عام ١٩٥٩ والثالث عام ١٩٦٤، وعني في هذه الأثناء بنشر ديوان أبي العتاهية محققاً وطبعه عام ١٩٦٤ بعنوان (أبو العتاهية أشعاره وأخباره) ثم ديوان النابغة الذبياني صنعة ابن السكيت ١٩٦٨ ببيروت، ثم التفت إلى العناية بيسر الأعلام من العرب والمسلمين في المشروع الضخم الذي نوهنا به من قبل وهو تحقيق كتاب (تاريخ دمشق الكبير) جزء (عاصم– عايذ) ١٩٧٧، وجزء (عبدالله بن جابر – عبدالله بن زيد) ١٩٨١م بالاشتراك مع سكينة الشهابي ومطاع طرابيشي، وجزء (عبادة بن أوفى – وعبدالله ابن ثوب) ١٩٨٢ بالاشتراك مع روحية النحاس ورياض مراد، وهذا المشروع إن لم يكتمل اليوم فإن له كثيراً من المتحمسين الذين ما زالوا يعملون بدأب وصبر لإنجازه وتحقيق أجزائه الباقية منهم من بقي في المجمع ومنهم من يحقق خارج المجمع.

كما شارك في إنجاح مشروع الدراسات العليا بجامعة دمشق – كلية الآداب– وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعة دمشق والجامعات العربية الأخرى وقاوم حركة التغريب.. وعمل على دعم الأصالة العربية الإسلامية وإعلاء الأدب الرفيع الأسمى.. فكان نبراس خير وقدوة وسلوك.. ومثلاً أعلى للغيور على العرب والمسلمين.